منهجية الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وإشكالية العلاقة بين النقد والبلاغة

■ د.علي أحمد صالح *

مقدمة : -

مما لاشك فيه أن النقد العربي القديم كان يرتبط بوشائح قوية وعلاقات متينة بعلوم البلاغة، وإن معظم الانتقادات التي كانت تصوب نحو الأدب العربي ولاسيما الشعر معظمها خاطئة وأكثرها مخالفة لأصول البلاغة العربية، وعلى الرغم من عدم انفصال موضوعاتها عن النقد– البلاغة - ، لأنه لم يكن معروفا في ذلك الوقت أصول وقواعد لهذا العلم، حيث كان متصلاً اتصالاً وثيقاً بالنقد العربي كما هو متصل بالإعجاز القرآني مما جعلها أي البلاغة تناولتها كتب الإعجاز بخاصة وكتب علوم القرآن بعامة .

إذ لا يخلو كتاب من كتب اللغة أو الأدب أو النقد من إشارات إلى موضوعات البلاغة . وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً، ففي كتاب سيبويه النحوي 180 ت هـ إشارات كثيرة في هذا الصدد مما صنف فيما بعد تحت اسم البلاغة على رغم من شهرة سيبويه في النحو إذ صرفت الناس عن البحث عن الجوانب الأخرى من الكتاب مع أن هذا الكتاب وضع أساساً للتقعيد في النحو العربي، ولكنه كما رأينا لم يخلو هو الآخر من الإشارة للبلاغة باعتبار كل العلوم كانت متداخلة بعضها مع بعض، ولم ينفصل منها أي علم عن الآخر فقد ظلت معظمها متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً ولم يظهر التخصص إلا بالتدريج حتى أخذ كل علم يستقل بقواعده وقوانينه التي تضبطه، فيعرف بها وتصير خاصة به دون غيره من العلوم الأخرى .

وفي هذه الدراسة سنتناول بإذن الله تعالى من خلال مبحثين بعض كتب النقد ذات العلاقة المتينة الوثيقة بالبلاغة وإبراز ملامح الأفكار بينها وبخاصة عند النقاد العرب ولاسيما في المراحل الأولى والتي من الصعوبة بمكان الفصل بين علوم النقد وعلوم البلاغة ذلك في المبحث الأول، وفي المبحث الثاني نتعرض لأهم القضايا النقدية في كتاب البيان والتبيين .

* عضو هيئة التدريس بقسم اللغة العربية / كلية الآداب جامعة طرابلس

المبحث الأول : كتاب البيان والتبيين

ربما تكون البلاغة وثيقة الصلة بالجدل والمنطق، بهذا ويمكن القول : إنها نشأت في بيئة المتكلمين التي تعد أخصب البيئات الفكرية الصالحة لنشأة معظم العلوم ؛ والجاحظ يُعد : « أحد هؤلاء المتكلمين فقد دفعه الحماس للعربية وبلاغتها وبيانها إلى أن يضع كتابه (البيان والتبيين) لكي يرد على أصل الشعوب الأخرى التي كانت تفتخر بما لديها من أقوال في البلاغة والبيان ؛ فأراد الجاحظ أن يبين ما للعرب من السبق في هذا المجال فألف كتابه هذا في الخطابة .... ويلاحظ الذين يؤرخون لنشأة البلاغة العربية أن مفهوم البلاغة عند المتقدمين الذين وضعوا أسس علم البيان العربي ؛ وعلى رأسهم الجاحظ يرتبط كل الارتباط بمفهوم الخطابة، فكثيراً ما وردت الكلمتان عن الجاحظ مترادفتين، بل وتحمل كل منهما معنى الأخرى وتوصف بأوصافها » [1] وقد أورد الجاحظ في كتابه الكثير من آراء الناس في البلاغة، العرب منهم وغير العرب . ويظهر من خلال تلك الآراء أن الخطابة هي البلاغة . ولعل السبب في هذا الربط هو ازدهار الخطابة بجميع ألوانها السياسية والدينية في عصر بني أمية وهذا ما ذهب إليه شوقي ضيف إذ يقول : « وإذا تحولنا إلى عصر بني أمية وجدنا الخطابة بجميع ألوانها ؛ من سياسية وحفلية، ووعظية تزدهر ازدهاراً عظيماً »[2] فأسهم ذلك الازدهار ربما في تطور البلاغة، لأنها كانت محوراً تدور حوله معظم الملاحظات البلاغية أو النقدية، ومما ضاعف من كثرة الملاحظات البيانية في عصر بني أمية أيضاً، « بواعث كثيرة فقد تحضر العرب واستقروا في المدن والأمصار، ورقيت حياتهم العقلية وأخذوا يتجادلون في جميع شؤونهم السياسية والعقيدية .... ونما العقل العربي نمواً واسعاً، فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام ، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان، لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب، بل أيضاً في مجال الشعر والشعراء » [3].

ويذهب زكي عشماوي إلى أن الجاحظ وكتابه (البيان والتبيين) «كان له تأثيره البالغ على التفكير البلاغي عند العرب»[4]، وقد كان طغيان الخطابة، وارتباطها بالبلاغة كما أسلفت راجع إلى سيطرة النزعة العقلية في التفكير البلاغي عند العرب . لاسيما أن « أول كتاب في البيان العربي يؤلفه رجل من كبار رجال المعتزلة، وعلماء الكلام الذين كانوا حريصين أشد الحرص على أن يزودوا أنفسهم بالثقافات الأجنبية وخاصة بالفلسفة والمنطق.... وكان طبيعياً من رجل هذه ثقافته وتلك نزعته أن يكون كتابه صورة لتفكيره وما كان يدور في تلك الحقبة من اتجاهات عقلية وجدلية وفلسفية، وأن تتأثر ملاحظاته

البيانية بهذه الاتجاهات السائدة » [5]، وظل هذا الكتاب ذا أثر بالغ لكل من جاء بعد الجاحظ، فقد كان « مورداً خصباً استقى منه كثير ممن كتبوا في البيان العربي، والبلاغة العربية، واستمرت سيطرة الكتاب على الفكر البلاغي حتى القرن الرابع وما بعده « [6]، فهذا الرجل بكتاباته اعتبر إماماً في البلاغة العربية ومؤسساً حقيقياً لها . يقول عنه عبد المنعم خفاجة « وقد عاش الناس في عصره وبعده عبالاً عليه في البلاغة، والفصاحة واللين، والعارضة »[7] فقد كان كتابه (البيان والتبيين) جامعاً بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب ؛ وسحرهم في البيان، وجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي، وقوانين البلاغة العربية، وأنواعها، وعناصرها، ومذاهبها، واتجاهاتها، وأثرها وليست كلها من جمع الجاحظ وروايته ؛ بل بعضها آراء لغيره، وفي الكتاب الكثير من بحوث البلاغة، ومن أهمها بحثه في الاستعارة أحد أهم موضوعات علم البيان العربي .

وهذا الكتاب يُعد « أصل من أصول الأدب ... وقيمته في البيان العربي خطيرة، لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة، وعناصرها، واتجاهاتها، ومذاهبها، وألوانها، وغاياتها وأثرها» [8]، وعلى هذا فقد حشد كثيراً من نصوص الأدب فنون الكلام من الرسائل والخطب والأشعار، والأخبار وقد أبان عن رأيه فيها، وما قيده مما يحفظ ويروى من أقوال الرواة، والمحدثين فهو من أكبر كتب البلاغة وأشهرها ؛ وهو « كثير الفوائد جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء، والبلغاء وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة » [9].

فكتاب البيان موسوعة في الأدب ؛ وفنونه أعلامه بكل ما تحوي هذه الكلمة من المعاني.

وخلاصة القول: إن هذا الكتاب هو البحث في البيان أي (الأدب) وفنونه والتعريف بأسباب قوته . بتوفير عناصر الجمال الفني فيه، وأبان فيه عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة، وآراؤه « مبثوثة في تصانيف كتابه، ومنتشرة في أشتاته، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير » [10]، فهو بحق مؤسس علم البلاغة العربية ؛ فقد توسع في دراستها « وقدم الكثير من النشاطات الأدبية والفكرية، فجمع ما كان يتصل بها من آراء، وعلم سابقيه ومعاصريه، وشرحها وعمل على تقديم الكثير من الآراء والأفكار الشخصية التي تتمحور حولها، ولهذا اعتبر بحق واحداً من النقاد القدماء الكبار، إذ النقد العربي القديم كان يقوم أساساً على علوم البلاغة العربية وقضاياها» [11].

مؤلف الكتاب : الجاحظ

يمكن لا أبالغ إذا قلت إن الأدب العربي لم يعرف شخصية موسوعية كهذا الكاتب حيث يصعب تصنيفه أو وضعه ضمن دائرة من دوائر الأدب المعروفة ؛ فلا هو لغوي في المطلق، ولا هو من علماء النقد فقط، أو أديب عارفاً بالشعر أو هو من علماء اللغة أو النحو أو من الدارسين للإعجاز القرآني بل هو كل هذه الأشياء مع بعضها البعض؛ فهو بحق رجل موسوعي بكل ما تعنيه هذه الكلمة ؛ إنه أبو عثمان الجاحظ : عمرو بن بحر بن محبوب « مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي أحد النساء .... وكان جد الجاحظ أسود يقال له قزازة وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني وقال أبو القاسم البلخي، الجاحظ كناني من أهل البصرة، وكان الجاحظ من الذكاء، وسرعة الخاطر، والحفظ بحيث شاع ذكره وعلا قدره واستغنى عن الوصف » [12]، ولم يعرف أحداً يحب العلم كما عُرف بذلك الجاحظ « فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .... كان يحضر لمجالسة المتوكل فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عودته إليه حتى في الخلاء» [13]، ولقد كان من أصحاب النظام فكان واسع العلم بالكلام ؛ كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ؛ ومن أعلم الناس به، وبغيره من علوم الدين والدنيا .

فهو رجل معتزلي « تتلمذ على إبراهيم النظام، واشتهر كلامه بين المعتزلة فانتسب بعضهم إليه وهم الجاحظية » [14]، وقد بسط الجاحظ مذهبه في الكلام والاعتزال في كتابه (فضيلة المعتزلة) وقد حمله مذهبه على الدخول في جدل مع المسيحية في كتابه الرد على النصارى ؛ وقد عُرف الجاحظ أيضاً بمحاربة المجوسية، والدفاع عن العرب في مناسبات مختلفة « وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين، وفي حكاية مذهب المخالفين، والآداب والأخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرؤوها وعرفوا فضلها ... والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور»[15]،ففي تفسير القرآن كان الرجل ميالاً في أكثر الأحيان إلى استخدام العقل ؛ والاعتماد عليه ويخاصم من يفسر كلام الله تعالى على ظاهر معناه.

فالجاحظ واسع الاطلاع على الثقافات الأجنبية آدابـاً؛ وعلوماً وفلسفات لاسيما الثقافية اليونانية واللغة الفارسية .

ومن نافلة القول : شخصية الجاحظ مركبة وكثيرة هي الكتب التي اهتمت بهذه الشخصية، ولست أريد هنا أن أتوسع في هذا الموضوع ؛ لأن كتبا كثيرة عنت بذلك،

وهذا البحث يهتم بالجوانب النقدية أكثر من شخصية المؤلف ؛ لذلك اكتفي بالقول: إن الرجل احتل منزلة مرموقة بين مفكري عصره . فهو أديب ناقد وعالم متبحر واسع الثقافة ومعتزلي من أكبر شيوخ المعتزلة . قد صارت له فرقة كلامية تتبع آراءه تدعى « الجاحظية» كما ذكرت آنفاً ؛ وهو من أوائل المتكلمين في البلاغة العربية، ومن المبرزين في علم اللغة، والنحو وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط وروج كثيراً من مقالاتهم بعبارته البليغة؛وحسن براعته وقد كان له منزلة رفيعة جداً بين مفكري المعتزلة[16].

وهو عالم باللغة، والشعر يعرف جيده من رديئه ،، ويورد الخطب الطوال في البيان والتبيين.

وهو محدث، ومفسر، ومرب قد امتاز بآرائه التربوية الصائبة، ولعلي لا أخطىء إذا قلت إن الرجل أخذ من كل علوم زمانه بطرف، وإنه صنف في فنون العلم المختلفة ؛ حتى إنه كتب في الكيمياء ووضع كتابا في الأسد والذئب، وكتب في الملوك، والأمم السالفة، والاستبداد والمشاورة في الحرب، وفي القضاة وفي النرد ؛ والشطرنج وفي غش الصناعات وغيرها[17]، من العلوم المختلفة ؛ وهذا يؤكد مما لا يدع مجالاً للشك أن الرجل موسوعة كاملة ؛ لذا يصعب ملاحقة الكتب التي تحدثت على هذا المبدع الذي عاش وقد نيف على التسعين فأصيب بالفالج ولكنه ظل طوال عمره يزاول مهنة الكتابة، وكانت القراءة هوايته الدائمة حتى وفاته سنة 255 هـ، وقد ذكر سنة وفاته ياقوت [18]، بعد أن خلف وراءه تراثاً ضخماً في كل العلوم ؛ منها هذا الكتاب الذي هو موضوع هذا البحث وهو كتاب (البيان والتبيين).

المنهجية في كتاب البيان والتبيين

ذكرت سالفا وفي بداية المبحث الأول أن الجاحظ أحد المتكلمين الذين دفعهم الحماس للعربية وبلاغتها أو بيانها إلى التفنن في الأداء اللفظي ؛ والبحث في المسائل البلاغية، وذلك في أثناء دراستهم القرآن الكريم، وفهم ما فيه من ألوان التشبيه، والمجاز، والبديع، وقد وضع كتابه البيان والتبيين بتأثير هذا الحماس، وليرد على أهل الشعوب الأخرى التي كانت تفخر بما لديها من أقوال في البلاغة والبيان فأراد ؛ بذلك أن يثبت أن للعرب السبق في هذا فكتب هذا الكتاب الذي يُعد أكثر كتبه تداولاً وأعظمها نفعاً، فيه تخرج كثير من الأدباء، واستقامت ألسنتهم لما اشتمل عليه من الخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وقال عنه صاحب الصناعتين في معرض حديثه عن التأسيس لعلم البلاغة « كان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو

لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه، ، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير »[19].

فهذا الكتاب إذاً قد تحدث فيه الجاحظ عن البيان والبلاغة والخطابة وقد ألفه» [20] في سنينه الأخيرة، وقدمه للقاضي « أحمد بن أبي دؤاو» فأجازه عليه بخمسة الآف دينار، وهو الكتاب الذي وضع أسس الفصاحة، والبلاغة والنقد، والأدب المقارن، الذي يلتفت إلى أدب اليونان والهند والفرس.

ويُعد الجاحظ « الواضع لأصول البلاغة والبيان في كتابه الكبير البيان، فقد عرض لألوان كثيرة من البيان، فذكر البديع، والسجع، والاستعارة، والتقسيم والاستطراد، والكناية، والتشبيه كما عرض للإيجاز والإطناب»[21]، فهو بذلك فعلاً هو الواضع الأصلي للبلاغة أو المؤسس الأول ؛ حتى إن شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني ذكره في كتبه ونوه به و»ببلاغته في مقدمات كتبه ويستدل بآرائه في الإعجاز وينقل عنه كثيراً من الآراء في مختلف المشكلات والبحوث البيانية وكان عبد القاهر لا يجل أحداً كما يجل الجاحظ، ولا يحترم رأياً كما يحترم رأيه وكذلك كان الكثير من علماء البلاغة وضرب عبدالقاهر الجرجاني المثل ببلاغة الجاحظ وخاصة في مقدمات كتبه » [22].

وكتابه هذا أساس مكين من أسس النقد الأدبي عند العرب ؛ فهو كتاب في النقد الأدبي، والبلاغي، والأدب المقارن، وفن الرواية ولكن مع كل شهرة مؤلفات الجاحظ وتميزه في التأليف، وأهمية كتبه لاسيما (البيان والتبيين) إلا أنه « ينقصه التبويب والتنسيق والتخلي عن الفوضي» [23].

فهو يبتعد عن المنهج العلمي الذي يحرص على حصر الموضوع وتنظيم البحث، وتقسيمه واستيفاء الكلام في أجزائه وهذه : « سمة الجاحظ في أكثر تآليفه » [24]، ولعل ذلك يرجع إلى سعة علمه ومعرفته، واتساع ثقافته واطلاعه على كل المعارف في زمانه، وفي كل الحضارات المعروفة آنذاك، ولذلك تتزاحم عليه الأفكار وتتسابق عليه المعارف في ذهنه، فيصعب عليه أحياناً ملاحقتها أو لربما من شدة اتساعها يصعب عليه أن يلتزم تنظيمها ؛ ولهذا يصعب « الاهتداء في جنبات مؤلفاته إلى الفكرة والرأي لمن يبحث عن الفكرة والرأي » [26]، ولكن مع كل هذا فإن الرجل كان دقيق الملاحظة وهي من خصائص

العلماء ذوي النزعة العلمية ؛ لأن تفكيره كان استقرائياً « فإذا عرضت له مسألة من المسائل راح يتأملها ويلاحظ ما يتصل بها وما يصدر عنها وما يحيط بها » [27]، ومع كل هذه العملية في تتبع أي معلومة يعرض لها الجاحظ إلا أن أحكامه أولاً وأخيراً كانت تستند إلى آرائه الخاصة، وآراء معاصريه من كبار النقاد والأدباء وإلى ذوقه الأدبي ؛ وعلى هذا يمكنني القول : إن « الجاحظ نفسه لم يسع إلى وضع منهج نقدي متكامل يسير عليه في علمه، وربما لم يكن في وسعه أن يقدم مثل هذا المذهب في عصره، لأن كثيراً من المفاهيم النقدية لم تكن قد تبلورت وتحددت أبعادها » [28]، ولكن يمكن القول : إن الجاحظ قد جمع في كتابه البيان والتبيين بين منهجين هما المنهج الفني والتاريخ « ويتمثل ذلك في تدوين النصوص الأدبية ونسبتها إلى قائلها، وذكر المناسبات التي قيلت فيها كما يتمثل في تجميع ما قيل في موضوعات خاصة كالبلاغة، والبيان، والأدب، والخطب، واللحن، والعيّ، والصمت .... والنساك والزهاد من أهل البيان ... فمن هذه الموضوعات ما يمت بصلة إلى « المنهج التاريخي « ومنها ما يمت بصلة إلى « المنهج الفني « وكلاهما يجتمعان في كتاب» [29]، البيان والتبيين ومع هذا فإن أسلوب الاستطراد الذي اتبعه الجاحظ في هذا المؤلف وفي سواه يغطي على هذين المنهجين ؛ اللذين يظهران من حين لآخر في الكتاب فلربما الجاحظ لم يقصدها بل جو البحث فرضهما فجاآ عن غير قصد « لأنه ألف الكتاب ليكون موسوعة في الأدب والبيان، لا ليكون كتاباً منهجياً محدوداً، وليس الاستطراد فيه إغفالاً للموضوع ولا نسياناً لأصل البحث ولصميم الفكر الأدبي في الكتب» [30]، وأياً كان ما قيل عن منهج الجاحظ في هذا الكتاب العملاق في قيمته العلمية ؛ فإن الفكر الموسوعي لهذا الكاتب هو عذره الذي لا ينافس في عدم وضوح منهجه في هذا المؤلف الذي يعد أضخم وأهم ما ألف في البيان العربي من كتب « وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها، واتجاهاتها ،ومذاهبها، وألوانها، وغاياتها، وأثرها سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل » [31]، فهو يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب كما يجمع الكثير من أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة ؛ فهو بحق كتاب جامع لفنون كثيرة من الأدب، والبلاغة واللغة، والنقد ظهرت فيه ثقافة الجاحظ الموسومة وعميق اتصاله بعلوم الأمم الأخرى، وتفرده بين كل من عناصره أو جاء بعده حتى إنه قيل كل من « عاش في عصره وبعد عصره عيالاً عليه في البلاغة والفصاحة واللين والعارضة » [32]، فكل من كتب في البلاغة العربية ودرس البيان وأصوله ومسائله من قريب أو من بعيد وجاء بعد

الجاحظ قد تأثر به وبما نثره في كتابه من المقاييس البلاغية تأثيراً واضحاً واستفاد من علمه ونسج على منواله . وقد أثار بيان الجاحظ كثيراً من العلماء، فقدموا لنا دراسات خصبة في مؤلفاتهم تتصل بمسائل الأدب، وتدرس البلاغة والبيان، فتأثير الجاحظ في كل أولئك كان تأثيراً شديداً يوحي ما قيل عن أهمية الجاحظ ككل، وعلى الدور الكبير الذي أسهم به كتاب (البيان والتبيين) في التأسيس للبلاغة العربية، وفي انفصال بحوثها فيما بعد عن النقد لتكون علماً قائماً بذاته مستقلاً بها، ذلك الكتاب الذي نبع من ذلك الفكر الموسوعي الرائع ومن عقلية فذة وكتب بأسلوبه العميق المحكم وبيانه الساحر، الذي يأخذ بالألباب ويسرق شغاف القلوب وقد رسم « فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء ؛ لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل وقد عنى فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربي، شعره ونثره، وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان» [33].

كتاب البيان والتبيين وأبرز القضايا النقدية فيه

إن أغلب مؤلفي الكتب يتطرقون إلى أهم القضايا التي سوف يتنالونها في مؤلفاتهم في مقدمة تلك الكتب وربما صاحبنا مؤلف كتاب البيان والتبيين قد خرج عن هذه القاعدة إذ استعرض في أول كتابه لأهم الجوانب التي يعتمد عليها الكاتب والشاعر والخطيب .... في جانب من الجوانب يستغرق في الحديث عن الخطابة والبيان حيث غلب على هدفه لهجته في الدفاع عن العروبة ضد الشعوبية وما جاء فيها من آرائهم المحتقرة للعرب وعلومهم وآدابهم وتقاليدهم وربما كانت هذه أحد أهدافه الرئيسة من تأليف كتابه.

ولهذا نجد في النسخة التي حققها عبد السلام هارون إذ لم يصدر كتابه بمقدمة مثل معظم المؤلفين في عصره الذين كانوا يقدمون لمؤلفاتهم بمقدمات تبرز وتوضح أسباب التأليف كما يتعرضون لأهم القضايا التي سيتناولونها كما فعل ابن سلام وابن كفييه وغيرهما ممن كان في عهده أو بعدهما .

حيث بدأ بقوله « قال عثمان عمرو بن بحر اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن »[34].

المبحث الثاني : كتاب البيان والتبيين وأبرز القضايا النقدية فيه

لعل السؤال الذي يطرح نفسه لمن يرى هذا العنوان هو هل كان للكتاب مقدمة أصلاً؟ وإن كان له فأين هي ؟ ولكي أجيب على هذا التساؤل قمت باستقراء هذا الكتاب الذي ألفه الجاحظ ليعرض أهم الجوانب التي يعتمد عليها الخطيب والكاتب والشاعر، فاستغرق في الحديث عن الخطابة والبيان وغلب على لهجته الدفاع عن العرب ضد الشعوبية وآرائهم المحقرة للعرب وعلومهم وعاداتهم الذي أظنه كان السبب الحقيقي وراء تأليفه لهذا الكتاب.

ومن خلال الاستقراء لفت انتباهي شيء مهم . فبالرجوع إلى النسخة التي حققها عبد السلام هارون فإنني لاحظت من بداية الكتاب والذي بدأ بصفحة رقم (3) إن الجاحظ لم يُصدر كتابه بمقدمة كعادة المؤلفين في زمانه حيث يصدرون كتبهم بمقدمات يشرحون فيها سبب تأليف كتبهم ويعرضون فيها لأهم القضايا التي يودون مناقشتها وذلك ما فعله ابن سلام وابن قتيبة سواء من عاصره أو من جاء بعده وسواء التزموا بذلك في متون كتبهم أو لم يفعلوا.

فالرجل قد بدأ بقوله: « قال أبو عثمان عمرو بن بحر اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العي والحصر وقديماً ما تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما »[35]، ثم يورد بعد ذلك شعراً يدل على كره العي والحصر في الكلام، ويستمر في ذكر مثل هذه الأشعار خلال ثلاث صفحات متتالية، ثم يعرض لقول الفرس في ذلك ويتحدث عن سيدنا موسى، ويذكر عقدة لسانه من خلال آيات القرآن الكريم ويحكي كيف اتكأ فرعون على هذه العقدة ليقلل من شأن سيدنا موسى عليه السلام وفي أثناء عرضه لقصة موسى يذكر لنا أنه سيعود في ثنايا الكتاب للحديث عن هذه القصة فيقول : « وسنقول في شأن موسى عليه السلام ومسألته، في موضوعه من هذا الكتاب إن شاء الله « [36]، وما تقدم يوحي لنا بأن الجاحظ في هذه الصفحات كأنه يقدم لما سيقوله ولكنه مع ذلك يستمر في الحديث عن تعليم البيان وعظيم نعمته في تقويم اللسان وذلك من خلال آيات القرآن الكريم ثم يعود مرة أخرى للشعر العربي وينقل من القرآن إلى الشعر بشكل جميل ثم في الصفحة (13) يقول « ثم أعلم – أبقاك الله – أن صاحب التشريق والتقعير والتعقيب من الخطباء والبلغاء مع سماحة التكلف وسعة التزيد أعذر من عليّ يتكلف الخطابة ومن حصير يتعرض لأهل الاعتياد والدربة » [37]، إلى آخره من هذا الحديث ثم يتعرض بعد هذا إلى الحديث اللتغ في كلام واصل بن عطاء.

وهكذا يستمر في حديثه ليعود مرة أخرى في الصفحة 15 ليتحدث عن موسى عليه السلام وكيف حل الله عقدة لسانه وأطلق حبسته كل ذلك وهو يتحدث عن أخبار واصل بن عطاء وكيف كان يتعامل مع لتغ لسانه ثم في الصفحة 23 يضع لأول مرة عنوانا وهو ذكر ما جاء في تلقيب (واصل بالغزال ومن نفى ذلك عنه) وهذا يزيد من التساؤل في رأي هل هذه تعد مقدمة للكتاب تحتوى قضايا نقدية، وفي اعتقادي أظن أن الجاحظ كان مختلفاً عمن سبقه أو جاء بعده، فالمؤلف دخل في موضوع كتابه مباشرة دونما أي تقديم، فلو قلنا إن مقدمته ضاعت لكان الأولى أن يشير إلى ذلك المحقق عبد السلام هارون وهو من كبار المحققين، ولو قلنا إن ما عرضت هو مقدمة للكتاب نقد فلا أظن أن التفكير العلمي السليم يقول ذلك فكيف تخلو المقدمة من عرض خطة الكاتب التي انتهجها لعرض موضوعاته وكيف تخلو مقدمة من ذكر سبب تأليف الكتاب وذكر ما سيعرض له المؤلف خلال المتن، ولذا أقول إن المؤلف بدأ الكتاب في جزئه الأول دونما مقدمة توضيحية نقدية ليأتي في الجزء الثاني ويصدر الكتاب بمقدمة لا أظنها كانت لتلافي التقصير في عدم وجود مقدمة في الجزء الثاني وفيها ربما سيعرض سبب تأليف كامل الكتاب لأن في رأي الباحث الجاحظ رجل كان يعتمد على استطراد وهو : الانتقال من موضوع إلى آخر ربما هذا ما جعله بعد التقديم في أربعة أسطر لموضوع الكتاب وإيراد الأشعار والآيات الكريمة يبدأ في الحديث مباشرة عن موضوع الكتاب .

أما في الجزء الثاني فالمقدمة واضحة وقد وقعت في ثلاثين صفحة ثم ذكر بعدها مباشرة في الصفحة الحادية والثلاثين خطبة حجة الوداع .

فقد بدأ بقوله : « الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على محمد خاصة وعلى أنبيائه عامة، أردنا أبقاك الله – أن نبتدئ صدر هذا الجزء من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم .... وفي كل ذلك قد روينا الشاهد الصادق والمثل السائر ولكننا ارتأينا أن يصير صدر هذا الباب كلاماً من كلام رسول رب العالمين والسلف المتقدمين والجلة من التابعين ... وبنا – حفظك الله – أعظم الحاجة إلى أن يسلم كتابنا هذا من النثر القبيح والشوه المشين ... هذا سوى ما رسمنا في كتابنا هذا من العرب الفصحاء وجمل كلام الأعراب الخلص، وأهل اللسن من رجالات قريش والعرب وأهل الخطابة، وأهل الحجاز ونتف من كلام النسال، ومواعظ من كلام الزهاد ..... وسنذكر من كلام رسول الله – ﷺ– مما لم يسبقه إليه عربي ولا شاركه فيه أعجمي ... وإنما نقول في كل باب بالجملة من ذلك المذهب وإذا عرفتم أول كل باب كنتم خلقاء أن تعرفوا الأواخر بالأوائل المصادر بالموارد » [38]، ذلكم كان أسلوبه

فيما يمكن تسميته مقدمة كتابه وهي تصدير للجزء الثاني حيث رسم لنا الخطة التي سيتبعها في عرضه لموضوعات كتابه والذي يظهر أنه ألفه في الردّ على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم وقد أورد ما يدل على أن للعرب البيان فهم كانوا بارعين في الخطابة وقد عرض العرب وكلام الرسول ﷺ.

فهذا الكتاب إذا هو خاص بالنثر العربي بالدرجة الأولى لأن موضوعه الرئيس كان الحديث عن الخطابة العربية ومحاولة للتأكيد أن هذا الفن عرفه العرب كغيرهم من الأمم ويظهر ذلك في خطبهم الكثيرة وفي خطب النبي عليه السلام ثم يتعرض الجاحظ في هذا الكتاب للبيان العربي الذي هو البلاغة نفسها في نظره فيتحدث عن الخطابة والكتابة، ثم الشعر وهو لم يستطع أن يبين حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة.

وقد بدأ المقدمة في الجزء الثاني عن الخطبة البتراء وعن التكلف في الخطابة يقول : « ومن أعاره الله من معونته نصيباً وأفرغ عنه من محبته ذنوباً جلبت إليه المعاني وسلس له النظام وكان قد أعفى المستمع من كدّ التكلف وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم » [39].

ثم يقرر أن خطب السلف كانت على الطبع بعيدة عن التكلف وأن التكلف جاء في خطب المولدين.

وبعدها ينتقل بعد عرض رأيه في الطبع والتكلف وهما من القضايا النقدية في الخطابة يتحدث على ذات الموضوع في الشعر؛ ويذكر ما كان من عناية زهير بشعره حيث يقول : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ويحيل فيها عقله » [40].

وبعدها ينتقل إلى قضية أخرى مهمة وهي : تقسيم الشعراء إلى أربع طبقات فقال « الشعراء عندهم أربع طبقات فأولهم : الفحل الخنذيذ والخنذيذ هو التام .... ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق .... ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشعرور .... وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاث شاعر، وشويعر، وشعرور » [41]، ولعلنا لم نسمع بهذا التقسيم لطبقات الشعراء عند غيره من الكتب التي عرضت لها في هذا المقال مما يدل على أن الكاتب كان متميزاً مبتكراً في عمله، لا يقلد أحدا ولا يسير على نهج أحد بل هو من يبتدع ويبتكر الجديد في مؤلفاته فيكون حذوة تحتذى عند سواه مما كتب في هذا المجال، وهنا يمكن أنه قد شغل بموضوع الطبع والتكلف في نقده للشعر وفي حديثه عن الخطابة، فوقف من الشعراء موقفاً وسطاً فهو ليس مع المطبوعين على المطلق ولا يعتبر

العناية بالشعر إلى حد التكلف شيئاً مردولاً ولكنه قال : « وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ورؤبة ولذلك قالوا في شعره مطرف بالآف وخمار يواف وقد كان يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء » [42].

أما في الخطابة فهو يكره فيها التكلف يقول : « وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه – ﷺ – وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد « وما أنا من المتكلفين » [43]، قال ولم أرهم يذمون المتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرون المتطرف والمتكلف للغناء ولا يكادون يضعون اسم المتكلف في المواضع التي يذمونها » [44].

ذلك ما كان في مقدمته للجزء الثاني، أما الجزء الثالث فقد بدأه بقوله : « هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين وما شابه ذلك من غرر الأحاديث وشاكله من عيوب الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة والمقطعات المتخيرة وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة، ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية » [45].

وعلى ذلك ينهي الكتاب بالجزء الثالث ونتبعه في هذه النسخة بالجزء الرابع الذي يبدأ دونما تصوير مما يؤكد أنه في ثلاثة أجزاء .

ومجمل القول : إن الجاحظ قد بدأ جزءه الأول في كتابه بتصدير مع بعض الأسطر دونما مقدمة تذكر، وهذا ما فعله في الجزء الثالث من الكتاب، أما الجزء الثاني فأظن أنه قد تضمن مقدمة كما أسلفت القول ؛ ولكنها على الأرجح لم تحتو كغيره من المقدمات على أي طرح لقضايا نقدية أو بلاغية . إلا حديثه عن الطبع والتكلف في الخطابة والشعر العربي ؛ وأيضاً استشهاد على فصاحة بيان النبي عليه السلام بذكر العديد من أحاديثه المميزة، التي أكد لنا الجاحظ أنها لم يسبق لأحد أن جاء بمثلها إلى حد أنها في بعض منها صارت مثلاً سائراً للناس في موضوعها؛ كما اهتم الكاتب بالحديث عن عيوب الخطابة كالتشريق والتعقيب واستعمال المبسوط في موضوع البسط، والمقصور في موضع القصر، والغريب الوحشي والهجين، وذكر الكثير من الأحاديث النبوية التي تدل على حسن بيانه ﷺ.

الخاتمة

وأخيراً أيان ما كان الرأي حول مسألة خلو كتاب البيان من مقدمة فإن هذا الكتاب على درجة من الأهمية جعلت الباحث لا يستطيع إغفال الحديث حوله ؛ وإن خلا من المقدمة التي هي بيت القصيد لأنه كتاب أسس للبلاغة العربية، ويعد مرجعاً يرجع إليه كل المهتمين بالبيان والبلاغة، وتأثر به كل من ألف بعده من ابن قتيبة إلى المبرد إلى ثعلب إلى عبد الله بن المعتز إلى قدامة بن جعفر إلى أبي هلال العسكري إلى ابن سنان الخفاجي، وصولاً إلى العملاق عبد القاهر الجرجاني وقد جمع فيه الكثير من الملاحظات والآراء المبعثرة في بطون الكتب، وأضاف إليها من عقله وفكره، وحاول أن يضع ضوابط ومفاهيم للكثير من هذه الآراء، وقدم فيه « أول دراسة مستوعبة واعية في البيان العربي وما يرتبط به من ضوابط ومقاييس بلاغته، بل إنه قدم لنا أول مؤلف يحمل اسم البيان صريحاً» [46]، وحتى إن بعض كتب التراجم تنقل نصوصاً كاملة من كتابه كالتدليل على مكانته، وعبقريته في الاهتداء إلى أصول وضوابط علم البلاغة وذلك في كتب مهمة ؛ كمعجم الأدباء لياقوت الحموي، وكذلك فطن إلى فضله مؤرخو البلاغة العربية وكتابها كأبي هلال العسكري وابن رشيق في كتابه العمدة وذكر ابن خلدون في مقدمته وذلك في معرض حديثه عن علم الأدب « أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، هي : أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الأربعة فتبع لها ؛ وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة» [47]، وذكر في موضع آخر من حديثه عن البيان حيث قال : « وأمثال ذلك وسمي عندهم علم البديع وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني ؛ لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى، وكتب فيها جعفر بن يحيى، والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاءات غير وافية ثم لم تزل مسائل هذا الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن محص السكاكي زيدته وهذب مسائله ورتب أبوابه » [48].

ولهذا كان لابد من التعرض لهذا الكتاب والبحث عن مقدمة له والذي تبين لي أنه قد أهملها لا سيما في الجزء الأول وصدر بها الجزء الثاني ولعل ذلك راجع إلى أسلوبه الخاص في التأليف ؛ الذي يختلف عن أي مؤلف آخر فقد دأب [49]، الجاحظ في تأليفه أن يرسل نفسه على سجيتها فهو لا يتقيد بنظام محكم يترسمه ولا يلتزم نهجاً مستقيماً يحذوه؛ ولذا تراه يبدأ الكلام قضية من القضايا ثم يدعها ليدخل في قضية أخرى، ثم

يعود إلى ما أسلف من قبل وذلك لم يكن ديدنه هو فقط، بل كان ديدن علماء عصره وزمانه كما أنه ربما يكون علو سنه وجدة التأليف في تلك الأبحاث التي طرقها سبباً في هذا السبيل الذي سلكه في تناول موضوعات كتابه ؛ التي صدّر لها في الباب الأول بدراسة ميدانية للبيان في الحياة العامة، ثم عرض للعي في مقابل الفصاحة واللكنة في مقابل الإجابة والفصحاء المطبوعين مقابل الفصحاء المتكلفين لفظ العامة مقابل الخاصة، ونطق العرب مقابل نطق الموالي، وأنواع الحبسة مقابل الذين يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف أنافهم وغيرها من موضوعاته وعلى رأسها عرضه لقضية اللفظ والمعنى كونهما قضايا النقد الأدبي في زمانه ؛ والذي عُد أول من وضع رأي صريح فيها بتقديمه اللفظ على المعنى باعتبار المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والأعجمي، والمدار على اختيار الألفاظ، وكذلك حديثه عن السرقات كأحد أهم موضوعات النقد . وغير ذلك مما تعرض له من قضايا في متن كتابه ولم يشر إليها في مقدمته كما فعل ابن سلام في طبقاته أو ابن قتيبة في الشعر والشعراء، أو صاحب الوساطة، أو الموازنة ونحوهم.

وكل هذا راجع إلى تفرده في تأليفه وبسبب فكره الموسوعي الذي فرض عليه هذا النوع من التأليف الذي ربما يجيز لنا القول: إنه جعل منه إلى حد ما كاتباً غير ملتزم بمنهج معين على الرغم من تميزه وغزارة علمه وعلى الرغم من كونه صاحب زعامة وإمامة في التأسيس للبيان العربي . فقد استطاع وضع الكثير من مصطلحات هذا العلم ووضع ضوابطاً لها، وجمع شتاته المبعثر في بطون كتب الأدب، وقدم لنا تصورات الأمم المختلفة عن البلاغة والبيان، وجمع كل هذا في كتابه البيان والتبيين، فكان بذلك قد وفر الاستقلال لهذا العلم وأرسى قواعده وثبت أصوله وأقام بنيانه . ماتزال لها جذورها في أصول علوم اللغة العربية على اختلاف تخصصاتها .

هوامش البحث :-

1. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي العشماوي ،،دار النهضة العربية، بيروت، ص 241، 242.
2. البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف ،ص14.
3. المصدر السابق، ص15 - 16.
4. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ،ص245.
5. المرجع نفسه، ص245 - 246.
6. المرجع نفسه، ص246.

7. الآداب العربية في العصر العباسي الأول ،دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ،1992م. ص337
8. المرجع السابق، ص348.
9. دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى غاية القرن الثالث، بدوي طبانة، ص183.
10. ينظر الصناعتين، ص5.
11. النقد الأدبي ومدارسه عند العرب، قصي الحسين، ص92.
12. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج5،ص2101.
13. المصدر نفسه، ص2102،2101.
14. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، القسم الثاني، ص112.
15. معجم الأدباء، ياقوت الحموي ،ج5،ص2102.
16. ينظر الجانب الاعتزالي عند الجاحظ، بلقاسم الغالي ،دار ابن حزم، الطبعة الأولى ،1999م، بيروت، لبنان . ص79
17. ينظر معجم الأدباء، ياقوت الحموي ،ص2120،ج5.
18. ينظر المصدر نفسه، ج5، ص2127
19. الصناعتين، الكتاب والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ،1998م. ص4 - 5 ،
20. انظر مراحل تطور النثر العربي في نماذجه، ج2، علي شليق ،دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1992، ص301.
21. أبو عثمان الجاحظ، محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، 1973م. ص231
22. المرجع نفسه، ص 232 - 233.
23. مراحل تطور النثر العربي في نماذجه، ج2، علي شليق، ص406.
24. دراسات في نقد الأدب العربي، بدوي طبانة، من الجاهلية إلى غاية القرن الثالث. ص183
25. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
26. الجانب الاعتزالي عند الجاحظ، بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ،1999م. ص142
27. النقد الأدبي عند الجاحظ، مجرد الأطرش، نشر وتوزيع مكتبة ربيع حاب، ص227.
28. في النقد الأدبي، عبد العزيز عتيق، ص292 - 293.
29. أبو عثمان الجاحظ، عبد المنعم خفاجى، ص318.
30. الآداب العربية في العصر العباسي الأول، عبد المنعم خفاجة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ،1992م. ص348
31. المرجع نفسه، ص337.
32. المرجع نفسه، ص 348.

33. البيان والتبيين، ج1، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة، 1998م. ص3 ،
34. المصدر السابق، ص8.
35. المصدر نفسه، ح1، ص 13.
36. المرجع السابق، ص5 – 30.
37. المصدر السابق، ص8.
38. المصدر نفسه، ص9.
39. المصدر نفسه، ص 9 – 10.
40. المصدر السابق ،ص13.
41. الآية 86، من سورة ص .
42. البيان والتبيين، ج2، ص17 – 18.
43. المصدر السابق ،ج3، ص5.
44. المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين، فوزي السيد عبد ربه، ص305.
45. مقدمة ابن خلدون، ص343.
46. المصدر نفسه، ص342.
47. البيان والتبيين، ج1 ،ص6.

المصادر والمراجع :

1 - الآداب العربية في العصر العباسي الأول ،دار الجيل ،بيروت ط1992،1م.
2 - البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964م،
3 - دراسات في النقد العربي من العصر الجاهلي إلى غاية القرن الثالث ،بدوي طبانة
4 - رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، مكتبة الخانجي بمصر، 1979م.
5 - قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي العشماوي ،دار النهضة العربية ،بيروت.
6 - الموجز في تاريخ البلاغة، مازن المبارك ،ط1 ،دار الفكر ،1981م.
7 - نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، محمد حنيف فقيهي، مطبعة الشؤون الدينية ،1981م.
8 - النقد الأدبي ومدارسه عند العرب، قصي الحسين .